

الباب الأول

الجرس

هذا الحرف لم يكن يستعمله الأوائل استعمالا اصطلاحيا كما نفعل الآن . وإنما كانوا يستعملون لفظي البلاغة والفصاحة ، ويختلفون بَعْدُ في مدلوليهما . والذي كان واجعا عندهم أن الفصاحة تتعلق باللفظ ، والبلاغة بالمعنى . قال أبو هلال العسكري ^١ : « ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ ، والبلاغة تناول المعنى أن التَّبَيُّغَاءَ يسمى فصيحاً ، ولا يسمى بليغاً ، إذ هو مقيمُ الحروفِ ، وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤدّيه » . اهـ . وقال في موضع آخر ^٢ : « قالوا : وإذا كان الكلام يجمع ثَعُوتَ الجَوْدَةِ ، ولم يكن فيه فخامة وفضلُ جِزَالَةٍ ، سُمِّيَ بليغاً ، ولم يُسَمَّ فصيحاً » . اهـ . فهذا كله يدلّ على أن الفصاحة بالمعنى الاصطلاحي القديم ، كان يراد بها رَتْنُ الألفاظ . وهذا قريب من مُرادنا بكلمة الجَرَس . وكثيراً ما كان الأوائل يستعملون لفظة الجزالة ، يعنون بها رَتْنُ اللفظ . ولكن هذه اللفظة كانت تستعمل في أغراض عديدة ، وتُسَلِّكُ بها مَسَالِكُ متشعبة . والبحث في ذلك

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري مصر ١٩٥٢ : ٨ .

(٢) نفسه : ٨ .

يطول . والراجح عندي أنها كانت تصف الأسلوب عامّة ، ولا سيما إذا كان يُشتمُّ منه النَّفْسُ الجاهليّ . وقد تورّط أبو هلال فاشترط الجزالة لجودة الكلام ، وعرف الجزل من القول ، بأنه الذي « تعرفه العامة إذا سمعته ، ولا تستعمله في محاوراتها »^١ . وما لبثت أن نقض مقالته هذه ، حين تعرّض لأبيات من شعر تأبّط شرّاً ، منها في صفة الظلم :

أزف زلّوج هزريّ زفازف هزف يبذ النّاجيات الصّوافي^٢

فوصف هذا بأنه من « الجزل البغيض الحليف » . . . الذي ينبغي أن يستجنب مثله^٣ . وكأني به قد احتاج إلى المشايخ والمعاجم في تفهم هذا البيت ، ولم يستطع أن ينكر جزالته ، وأيقن أنه مما لا تفهمه العامة حين تسمعه ، ولا تقدر على أن تأتى بمثله ، فلم يملك إلا ذمّه .

هذا ، ومما يباحق بكلمتي « الفصاحة » و « الجزالة » مما كان يراد به نعت الألفاظ ورنينها ، « حسن الرّصف » و « الفخامة » و « شدة الأسر » و « صفاء الديباجة » و « السلاسة » . و « الفصاحة » ، أدخلها جميعا في جوهر الاصطلاح . وكلمة « الجرّس » التي نستعملها نحن المعاصرين ، أدلُّ منها على القصد ، فصوتها نفسه يُشعر بمعناها . وهي بعد لفظ واسع المدلول ، ينضوي تحته كلّ ما يتعلق بدندنة الألفاظ في البيان الشعريّ . فالوزن والقافية على ذلك طرّف منه . وتبقى بعد الوزن والقافية فضلة ، هي مرادنا من هذا الباب . وهذه الفضلة يدخل فيها الجناس والطباق ، وسائر المحسنات اللفظية ، مع تركيب الكلام ، وترتيب الكلمات وتخييرها ، وكلّ ما من شأنه أن يعين على تجويد البنية والرنين في أبيات الشعر . وتقابل كلمة « جرّس » من الاصطلاحات الإنجليزية ، كلمة : « Rythm » .

(١) نفسه : ٦٨ .

(٢) قوله « أزف » . . . إلى قوله « هزف » : كله بمعنى السرعة . واستعمل الجمع « زفازف » مكان المفرد زفازف ، أو لعله أراد : ذو زفازف » والزفرقة : الحفة ، وهزف : كأنها محرفة من هجف : أي هذا الظلم سريع ، يذ الخيل الناجيات الصّوافي .

(٣) نفسه : ٦٨ .

وعلى مثال Rhythm ونظائرها في اللغات الإفريقية ، هذا النقاد المعاصرون منا ، في استعمال كلمة « جَرَس » .

ومن العجيب حقاً ، أن النقاد القدماء ضلّ عنهم أن يستعملوا كلمة « الجَرَس » استعمالاً اصطلاحياً ، وهي أدلّ - كما قدّمنا - من كلمة « الفصاحة » ، مع أنهم كانوا حريصين على البديع ، وتسمية أنواعه ، والاصطلاح لها . وأحسب أن للدّين يدا في هذا ؛ فقد كانت الموسيقى والغناء ، لولا تعشّق بعض العلية من الخلفاء والأمراء ، وبعض أهل الذوق من المتصوّفة خماً ، بالمرتبة السُّفلى ، والحضيض الأوهـد . في نظر الناس . وقد كان الفقهاء يختلفون في تحريم الغناء وتحليله ، وهذا وحده قد كان كافياً ليزدب المتحرّجين عنه ، أخذاً بالحديث : « الحلالُ بيّنٌ ، والحرامُ بيّنٌ » ، وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهات . . . الخ » . ولا نعلم شريفاً شغل نفسه بالغناء ، أيام دولته الكبرى بالحجاز على عهد بنى أُميّة ، اللهمّ إلا ما كان من أمر الوليد بن يزيد ، ورأى المسلمون فيه معروف ، وأخبار سماع عبد الله بن جعفر كانت تُروى على أنها نادرة من النوادر ، ومع هذا فلم يفت الرواة أن يخبرونا بما كان من لوم معاوية له في ذلك^١ . ويذكر لنا صاحب الأغاني أن إسحاق بن إبراهيم كان من العلماء الفضلاء ، ولكن الغناء قد غَضّ من منزلته ، حتّى إنه لمّا طمع أن يؤذّن له في لبس السواد مع القضاة ، زجره المأمون على ذلك^٢ . وكان إبراهيم بن المهدي يكره أن يُعدّ في المغنين ، وقد هجاه دِعبل أمرّ الهجاء ، بصنعتة هذه ، حينما تولى الخلافة ببغداد ، وذلك حيث يقول :

إن كان إبراهيمُ مضطّلعاً بها فلنصلّحَن^٣ من بعده لمُخارقِ

(١) الأغاني (طبعة الساسي) ٤ : ٣٥ .

(٢) نفسه ٥ : ٥٦ .

(٣) يريد الخلافة ، يقول إن صلح لها إبراهيم ، فإن مخارقا المغني وأصحابه صالحون لها .

وَلَتَصْلُحَنَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِزَلْزَلٍ وَلَتَصْلُحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِلْمَارِقِ
أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِكَائِنٍ يَرِثُ الْخِلَافَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقٍ
ويذكر أبو الفرج أن الواثق كان يتعاطى الغناء ، ويحذق جانباً منه ، إلا أنه
كان يكتم ذلك أشد الكتمان . فهذا كله يدل على كراهة الأوائل للغناء والموسيقا ،
وتحرجهم منها .

ولما كان المقصود من علم البلاغة هو إظهار الإعجاز ودلائله ، فلا يخفى أن
نعت أى شيء من كتاب الله أو أحاديث رسول الله ، بأنه ذو جرّس وذو دندنة
وذو موسيقا ، أو مشتمل على صفة من صفات الغناء ، يدخل في باب الزندقة .
ولهذا فضّل العلماء أن يستعملوا كلمة « الفصاحة » المشتقة من البيان والظهور ، على
استعمال أى كلمة تُشتمّ منها رائحة التّرثّم والنّعَم ، لوصف الجانب اللفظي من
أسلوب القرآن .

ونحن في هذا العصر لاننظر إلى الغناء أو الرسم أو أى فنّ من الفنون التي كان
يتحرّج أوائلنا منها ، نظرة شَرَر . ونُقّاد الإفرنج الذين نقّروا سبيلهم في منهج
البحث ، ما زالوا — مذ كانوا — يعبّدون الغناء والموسيقا من الفنون الرفيعة . وأثر
الدين المسيحي في هذا لا يخفى ، لأن العبادات والطقوس الكنسية تعتمد كثيراً على
التّرثّم وآلات الطرب ؛ فلا غرو أن تنبه النُقّاد الغربيون إلى دقائق في ناحية الرّنين
اللفظي ، لم يتنبه لها العسكري وأضرابه .

فصاحة الكلمة والكلام

عالج علماء البلاغة ناحية الجرّس باسم الفصاحة والسلاسة والطلاوة ، في غير
ذلك من الألفاظ ، كما قدّمنا ، في بابين مهمين : باب المعاني ، وباب البديع .
والذي قيل في باب المعاني أهم بكثير في نظرنا ، مما قيل في باب البديع ، لأن البديع

كله يدور على إحصاء المحاسن اللفظية وتسميتها . وأما المعاني فيبحث في الأصول التي تلزم للكلام الجيد ، ويحاول إبراز ما هيأتها ، وتخريج وجوهها المختلفة ، على منهج منطقي فلسفي .

والمبحث الذي يهمنا من باب المعاني ، هو تلك المقدمات التي يبدأ بها البلاغيون عن فصاحة الكلمة والكلام . وأنقلها هنا مختصرة عن الصفحات الأول من قسم البلاغة ، من كتاب المرحوم حفني ناصف « قواعد اللغة العربية » ، وهو كتاب معروف مقرر في مدارس مصر والسودان . قالوا :

١ - تكون الكلمة فصيحة إذا سلمت من الغرابة ، ومن تنافر الحروف . ومثّلوا للغرابة بنحو جَحْمَرِش ، وللتنافر بنحو النُقَاخ والمُعْخَع . ونظم هذه القاعدة صفي الدين الخلي في أبيات مشهورة ، منها قوله :

إِنَّمَا الْحَيَزَبُونُ وَالْدَرْدَبَيْسُ وَالطَّخَا وَالنُّقَاخُ وَالْعَلَطَبَيْسُ
لُغَةً تَنْفَرُ الْمَسَامِعُ مِنْهَا حِينَ تُرَوَّى وَتَشْمِزُ النُّفُوسُ

٢ - ويكون الكلام فصيحاً إذا خلا من تنافر الكلمات ، والتعقيد اللفظي ، والتعقيد المعنوي ، وضعف التأليف . ويُنْهَم من هذا وجوب أن يتركب الكلام من كلمات فصيحة ، فنال التنافر قول الآخر :

وَقَبْرٌ حَرَبٌ بِمَكَانٍ قَفْسَرٌ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرَبٍ قَبْرٌ
وينسب هذا البيت إلى الجن ، ويزعمون أنها قالته بعد قتلها حرب بن أمية . وكان قد نافر هاشم بن عبد مناف ، فغلبه هاشم ، وخرج أمية من مكة ، فأصابته الجن في بعض الطريق .

ومثال التعقيد : قول أبي الطيب من كلمته « كَلِّ يَا مَنَازِلُ » :

جَفَحَتْ وَهْمَ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ شِيمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغْرَ دَلَائِلُ

ومثال التعقيد المعنوي : قول الآخر ، أظنه العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكِبُ عَيْنَايَ الدَّمْعَ لِتَجْمُدَا
فَرَادَهُ مِنَ الْجُمُودِ غَامِضٌ .

وقول الطائي :

رَقِيقُ حَوَاشِيِ الْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْهِ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ
وهذا مما عابه الآمدي ، وزعم أنه خارجٌ عن مذهب العرب في نعت الحلم .

ومثال ضعف التأليف قول الآخر :

جَزَى بَنُوهُ أَبَا الْغَيْلَانِ عَنْ كَبِيرٍ وَحُسْنٍ فِعْلٍ كَمَا يُجْزَى سِنِمَارُ
وبين القاعدتين الأولى والثانية خصوصٌ وعمومٌ . فلا بُدَّ للكلام الفصيح من أن
تكون كلماته فصيحة . ولا يترتب على فصاحة الكلمات كون الكلام فصيحاً .
مثال ذلك بيت مسلم المشهور :

سَلَّتْ وَسَلَّتْ ثُمَّ سَلَّ سَكِيلُهَا فَعْدَا سَكِيلُ سَكِيلِهَا مَسَلُوا لَا
فكلماته إن أفردتها فصيحة ، وهي معا أبعدُ شئاً عن الفصاحة ، لمكان التنافر
بينها ، فيما زعموا .

ومثل هذا قول الطائي :

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحَهُ أَمْدَحَهُ وَالْوَرَى مَعِيَ وَإِذَا مَا لُمْتَهُ لُمْتَهُ وَحَدَى
فقد كرهوا توالي الخَلْقِيَّيْنِ في « أَمْدَحَهُ أَمْدَحَهُ » ، وعندى أن هذا ليس
بقبيح . وتوالي الخَلْقِيَّيْنِ كثيرٌ في الكلام الفصيح ، منه قوله تعالى : « وَأَوْفُوا
بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ » . والذي استشهد بكلام أبي تمام هذا ، لم يتدبر قُرْآنَهُ ، ولا
يحضر في اسمه .

هذا ، والذي ذكره العلماء في باب فصاحة الكلام ، فيه أشياء لا تَمَسُّ
« الجَرَسَ » من قريب : وإنما تتصل بباب الأسلوب والبيان ، كالتعقيد المعنوي

وضعف التأليف . [وذكرهما لهذين الصنفين : يقوى ما قدمناه لك ، من أن كلمة الجرس أدلّ على صوت اللفظ ، وأدقّ في التعبير من كلمة الفصاحة] .

ويستنتج من قاعدة فصاحة الكلمة ، أن الكلمات تكون حسنة وقبيحة في ذواتها . وهذا قد كان رأى أكثر النقاد ، ولا يزال يقول به جماعة من المعاصرين . وكان بعض القدماء ينكره ، ويزعم أن الكلمات كلها حسنة في ذواتها ، حتى يلحقها النظم ، فتعلو أو تسفل . ونقل ابن الأثير رأى هؤلاء ، من دون أن يسميهم ، ليسخر منه في مثله السائر^١ . وابن الأثير كان من القائلين بنظرية الحُسن والقُبْح في ذوات الكلمات ، شأنه في ذلك شأن أبي هلال العسكري ، والجاحظ في البيان والتبيين : وعلى آراء ابن الأثير في الغرابة والتنافر اعتمد المتأخرون . وأنقل للقارئ هنا طرّفا منها . قال ، بعد أن مهد لقضيته بأن الألفاظ هي من حَسَنِيّ الأصوات : « فالذى يستلذه السمع منها ، ويميل إليه ، هو الحسن . والذي يكرهه وينفر عنه ، هو القبيح . ألا ترى السمع يستلذّ صوت البلبل من الطير ، وصوت الشحرور ، ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب ، وينفر عنه ، وكذلك يكره نهيق الحَمِير ، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس ؟ والألفاظ جارية هذا المجرى ؛ فإنه لا خلاف في أن لفظة المُرْنة والدَّيْمة حسنة ، يستلذّها السمع ، وأن لفظة البُعاق قبيحة ، يكرهها السمع . وهذه اللَّفْظَات من صفة المطر ، وهى تدلّ على معنى واحد . ومع هذا فإنك ترى لفظي المُرْنة والدَّيْمة وما جرى مجراهما ، مألوفة في الاستعمال ؛ وترى لفظ البُعاق وما جرى مجراه متروكا ، لا يستعمل . وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة ، أو من كان ذوقه غير سليم ، لا جرم أنه ذمّ وقدح فيه ، وإن كان عربيا محضا من الجاهلية الأقدمين . فإن حقيقة الشيء إذا عُلِمَتْ ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعْرَج على ما خرج عنها . وإذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ : هو

الظاهر البَيِّن . وإنما كان ظاهرا بيِّنًا لأنه مألوفٌ في الاستعمال . وإنما كان مألوفًا في الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مُدْرَكٌ بالسمع . والذي يُدْرَكُ بالسمع ، إنما هو اللفظ ، لأنه صوت يأتلف من مخارج الحروف . فما استلذه السمع فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح »^١ .

ويستنتج من كلام ابن الأثير هذا ، أن الكلمة تكون قبيحة إذا كانت غريبة غير مألوفة ، وكونها غريبة غير مألوفة ناشئ من قُبْح مخارجها . وهذا منطق فاسد ؛ والأساس الذي بنى عليه ، وهو أن الألفاظ من حيز الأصوات ، أساسٌ "واه" ، لأننا نستحسن أصوات البلايل ، ونستقبح أصوات الغربان ، من حيث إنها جَرَسٌ محض . أما الألفاظ فلا نقدر أن نتصورها بدون معانيها . خذ مثلاً كلمة « نهيق » ، أليست هذه الكلمة حكاية لصوت الحمار المجمع على قبحه ؛ أهذا يجعلها قبيحة في ذاتها ؟ لو جاز أن يقال هذا ، لحُرِّمَ على الشعراء أن يصفوا الأصوات القبيحة جملة ، لا ، بل لبطل التعبير عن مظاهر القُبْح الموجودة في الدنيا مرة واحدة .

ومما يؤخذ على ابن الأثير أيضا ، فرضه أن المألوف في الاستعمال من الكلمات كان وسيظل مألوفًا ، لطبيعة حسنة راسخة في سنخه . وقد أباح لنفسه — دفاعا عن هذه النظرية — أن يعيب على الجاهلي المحض استعمال كلمة « بُعاق » . والذي لاشك فيه ، أن الكلمة ربما تكون مألوفة اليوم ، غير مألوفة غدا .

وقد ذهب عبد القاهر الجُرْجَانِي إلى القول الذي كرهه ابن الأثير ، من أن الألفاظ كلها متساوية ، حتى يفرق بينها النظم . قال : « . . . ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخبارا أو أمرا أو نهيا أو استخبارا أو لتعجبا ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة — هل يتصور أن يكون بين

(١) المصدر نفسه : ٤١ .

اللفظتين تفاضل في الدلالة : تكون هذه أدلّ على معناها الذي وضعت له من صاحبها على ما هي موسومة به ، حتى يقال : إن « رجلا » أدلّ على معناه من « فرس » على ما سمي به ؟ وحتى يتصور في الاسمين الموضوعين لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه ، وأبين كشفا عن صورته من الآخر ؟ فيكون « الليث » مثلاً أدلّ على السبع المعلوم من الأسد ، وحتى أنا لو أردنا الموازنة بين لغتين ، كالعربية والفارسية ، ساغ لنا أن نجعل لفظة « رجل » أدلّ على الآدمي الذكر من نظيره في الفارسيّة ؟ وهل يقع في وهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ننظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ؟ أو أن تكون حروف هذه أخفّ ، وامتزاجها أحسن ، ومما يكسّد اللسان أبعد ؟ وهل تجد أحداً يقول : « هذه اللفظة فصيحة » إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانسها لأخواتها ؟ وهل قالوا : « لفظة متمكنة ، ومقبولة » ، وفي خلافه : « قلقة ، ونائية ، ومستكرهة » إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معانها ، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفَقاً للثالية في مؤدّاهما وهل تشكّ إذا فكرت في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعي ، وغِيضَ الماء ، وقُضِيَ الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظّالمين » ، فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع ، أنك ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وهكذا ، إلى أن تستقرّ بها إلى آخرها ، وأنّ الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها ؟ إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها

وأفردت ، لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية ؟ قل « ابلعي » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها . وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشكّ في ذلك ، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن تؤدّيت ثم أُمِرَتْ ، ثم في أن كلّ النداء بـ « يا » دون « أى » نحو : « يا أيّها الأرض » ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعي الماء . ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها . ثم أن قيل « وغيض الماء » ، فجاء بالفعل على صيغة « فُعِلَ » الدالة أنه لم يَغِيضْ إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وَقُضِيَ الْأَمْرُ » . ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو « استوت على الجودى » ، ثم إضمار السّفينّة قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة « قيل » في الحاتمة « بقيل » في الفاتحة . أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك روعة ، وتخصرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كلّ ذلك ، لما بين الألفاظ والمعاني من الاتساق العجيب ؟

قد اتضح إذن ، اتضاحا لا يدع للشكّ مجالا ، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظٌ مُجرّدة ، ولا من حيث هي كَلِمٌ مُفردة . وأن الألفاظ تشبّثت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد لذلك ، أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتؤحشك في موضع آخر . اهـ^١ .

ويؤخذ على عبد القاهر ، أن في كلامه نوعا من التناقض ، من حيث إنه يسلم أن الكلمات منها الغريب الوحشيّ ، ومنها الذي يكُدُّ اللسان ، ثم ينفي بعد هذا كله أن تكون الكلمات متفاضلة غير متساوية قبل أن يشملها النظم . وربما يُعْتَدَرُ لعبد القاهر عن هذا بأنه كان يرى الألفاظ في جملتها غير متفاضلة ، وأن فضل

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، طبعة المنار الرابعة ١٣٦٧ هـ ص ٣٥ / ٣٨ .

المستعمل على غير المستعمل ، والخفيف على الثقيل طفيف ، بحيث يمكن تجاهله ، وأن النظم إذا أجاده صاحبه ، قد يسبغ على كلمة وحشية رونقا لايتها ولايتأتى إذا وضعنا مكانها كلمة أخرى مألوفة ، وقد يتيح لكلمة ثقيلة ، تكدُّ اللسان من العذوبة ما لايتوفر لو استبدلناها بأخرى مما يحسب خفيفا سهلا .

ولابن الأثير أن يعترض على هذا الاعتذار باعتراضات كثيرة : منها أن في تسليم عبد القاهر نفسه بأن في الكلمات ما يكون ثقيلا كاداً للسان من طبيعة مخرجه ، ما يدل على صدق النظرية القائلة بحسن ذوات الكلمات وقُبْحها . ومثل هذا الاعتراض لابد أن يجرّ إلى اعتراض آخر ، وهكذا حتى نخوض ونلجج في بحر طويل عريض من السفسطة .

هذا ، ومع أن نظرية عبد القاهر ليست دقيقة سليمة كل السلامة ، كما بيّنتُ ، فهي عندى أعمق غوراً من نظرية ابن الأثير . لأن ابن الأثير لم يزد على أن قسم كل الموسوعة اللغوية إلى قسمين : حسن وقبيح . وبني كل ذلك على أساس واحدٍ سطحيّ جدا . أما الجرجاني فقد تنبه إلى ما للتركيب والنظم من تأثير عظيم على رنين الكلمات ، وموقعها من الأسماع والقلوب . وأكبر ما يؤاخذ به ، هو أنه نسب كل حُسن وقُبْح في الألفاظ إلى التركيب وحده . وحتى على تقدير أن الموسوعة اللغوية خالية مما يكدُّ اللسان ، وخالية من المألوف وغير المألوف ، فقول الجرجاني لايمكن التسليم به في جملته ، لأنه مبنّى على تناسى العنصر البشرى ، وما تفعله الكلمات فيه ، منظومة ومفردة ، من تأثير . ولا شك أن الإنسان بطبيعته لامفرّ له من أن يفعل انفعالا ما ، نحو ما يقع في حيز إدراكه ، والألفاظ المفردة ، كالمنظومة ، كلها واقعة في حيز الإدراك . وباختلاف الناس تختلف الانفعالات ، ومن هنا يحدث التفاضل في الألفاظ المفردة ، قبل أن يلحقها النظم . ولولا ذلك ما كان يجد ابن الأثير من يهتم بما ذكره ، فضلا عن أن يؤيده .

أصول الألفاظ :

الناظر في جملة الألفاظ المودعة في القواميس والدائرة على الألسن . يجدها من فصيلتين : فصيلة وصفية ، وأخرى رمزية . والنوع الوصفي من الألفاظ هو أيضا من ضربين : ضرب محتفظ بوصفيته ، وآخر كالفقد لها ، أو فاقد لها بالكلية ، وهذا يمكن إدخاله ضمن الفصيلة الرمزية . أما النوع المحتفظ بوصفيته ، فهو نحو : زحير ، وزفرة ، وصَهْصَلِق ، وأملس وزَمْهَرِير . ونعني بالوصفية هنا : أن الواضع راعى في مدلولات هذه الكلمات ، صفاتها الواضحة ، المدركة بالحواس ، وحاول تقليدها بحروف فيها مَشَابَهٌ من هذه الصفات : واضع زَحِير ، وزَفِير ، وصَهْصَلِق ، ونهيق ، وصلصلة ، وخريز ، ونظائرها ، مثلا ، راعى ناحية الصوت في المدلولات ، فقلدها بحركات وسكنات تشابهها . وواضع خشن وأملس ، التمس محاكاة الملاسة والخشونة بالأحرف المكونة لهاتين الكلمتين . ولا شك أنه اهتدى إلى هذه الأحرف بعد موازنة أثرها في حلقه ومجاري صوته ، بالأثر الذي أحسّه إصبعه أو جلده من مقاربة الأشياء المُلْس ، والأشياء الخشنة . وواضع زمهرير لابد أن يكون أراد محاكاة الرعدة التي تحدث من البرد ، بأحرف ترتعد لها أسئلة لسانه ، أو تجاوب حلقه . وأمثال هذه الكلمات التي ذكرناها ، موجودة في سائر اللغات ، نحو كلمة Hiss ولفظة Bang و Flesh الإنجليزية . والحديث العهد بالعربية ، كالحديث العهد بالإنجليزية ، يحسن في كل هذه الكلمات التي قدمناها تعبيرا قويا ، ويقبلها قلبه بمجرد تلقّيه لها . ولو أمكن أن توصف لفظه بالحسن لذاتها ، لكان هذا النوع من الألفاظ أولى شيء بهذا الوصف ، لأنها ليست مجرد رموز ، وإنما كل واحدة منها قطعة فنية في ذاتها . والذين يقولون بأسبقية الشعر على النثر ، يرون فيها حجة قوية لهم . إذ أن واضعها لابد أن يكون قد أحس بشعور قوى إزاء المدلولات التي صاغها من أجلها ، ولا بد أن سامعيه قد أدركوا مراده

بمجرد نطقه بها — فإن لم يكن هذا شعرا : فماذا يكون ؟ والراجع عندى أن هذا النوع من الكلمات كان أسبق إلى الوجود من غيره . لأعنى فى صيغته هذه النهائية التى نلقاه بها فى قواميسنا ، ولكن فى صيغته الأصلية الأولى قبل أن تتلاعب به يد الزمن . غير أن أمرا واحدا يمنعنا من صفة هذا النوع من الألفاظ بالحسن المتأصل . وهو أنه عرضة للاستعمال السيئ ، كما أنه عرضة للابتذال وعوامل التطور التى يخضع لها كل شيء .

والصنف الثانى من ألفاظ الفصيلة الوصفية : وهو الفاقد — أو الشبيه بالفاقد — لوصفيته ، نعنى به نحو القريحة والذكاء والطَّبَع [بالتحريك ، بمعنى الطمع] ، فهذه كلمات بنيت على المجاز والتشبيه . فالذى وضع القريحة ، مريدا بها الفطنة ، شبه مدلوله بقريحة البئر أو بالماء القراح ، ثم استعار المشبه به للمشبه . والذى وضع الذكاء لنفس المعنى ، شبه مدلوله بالنار المشتعلة . [إذ أصل الذكاء هو الاشتعال] ثم استعار المشبه به للمشبه . وواضع الطَّبَع : شبه الطمع الشديد بالصدأ يركب القلب ، وأصل الطَّبَع : الصدأ . وواضع كلمة « خَفَقَ » للفضاء العريض ، أجراها على المجاز المرسل بعلاقة الحالِيَّة ، لأن الخفق : هو اضطراب الريح . وهلم جرا . وأكثر الكلمات من هذا النوع تنسى أصولها ، وتصير رمزية محضة . ولكن بعضها يبقى فيه نفس من أصله الأول . والفحول من الشعراء هم أحرص الناس على تذكر الأصول فى هذا الباب ، لأن ذلك يعينهم على الدقة فى التعبير ، التى هى مراد الشاعر . وقل أن نجد منشئا فحلا يصف القريحة بأنها وقادة ، أو الذكاء بأنه منساب فياض متدفق ، وإن كان مثل هذا يجوز الآن بعد اكتشاف النفط ، فهو سائل ومشتعل . وقد يجمعُ الله الشَّائِيتَيْن بعدما يظنَّان كلَّ الظَّنَّ أنْ لا تلاقيا

وأما القسم الرَّمْزى من الألفاظ ، فهو نحو : « أسد ، وبيت ، وسمكة ، وسافِرَ ومسافر ، وثمر ، وزهر ، وأزْهَرَ ، وفرحان ، ومجتهد » ، وأكثر هذه الجوامد والمُشتَقَّات التى تدور فى اللغة . وغير خاف أن الدلالة فيها جميعها ترجع إلى التواضع

والاصطلاح . ولو كانت اللغة سمّت الأسد عَنَزَا ، أو سمّته سافَرَ ، لجرى الاستعمال على ذلك . ولو كانت وضعت « حماراً » أو « سَبَح » لمدلول « ذَهَبَ » لجرى العرف على ذلك . والراجح أن أكثر هذه الكلمات لها أصول وصفية ، ولكن الزمن قد جرّ عليها ذيل العَفَاء . فهي الآن رموز لا أكثر ولا أقل . وهذه لا يُعقل أن توصف ذواتها بحُسن أو قُبَح .

الألفاظ والبيئة :

إن أردنا تشبيه البيئة بشكل هندسي ، فأشبه الأشكال بها هو المكعب . ويكون الزمان والمكان بمنزلة الطول والعرض . ويكون المجتمع بطبقاته المتمايزة بمنزلة الارتفاع ، والإنسان الواحد واقع تحت أبعاد البيئة الثلاثة معا ، وهي تحدد موضعه من الدنيا ، ويضاف إلى كل ذلك نفسه وذاته . وبها يتميز عن سواه ممن ينتمون إلى عصره ومكانه وطبقته الاجتماعية ، حتى إن منهم من يكون له أخا أو توءما . والألفاظ تابعة للإنسان لاحقة به ، فهي تقع تحت تأثير جميع هذه العوامل التي تفعل فيه ، فلا بدّ من اعتبارها جميعا حين نعرض لدراسة الألفاظ ، لاسيما ونحن نطالب هذه الدراسة سعيا وراء القيم الجماليّة الفنيّة المتعلقة بالألفاظ . وهذه القيم تظهر نسبتها جليلة ، إذا أدخلنا عامل البيئة في حسابنا .

الزمن :

نحن إذ نتحدّث عن أثر الزمن على الألفاظ هنا ، إنما نعني أثره على ألفاظ اللغة الواحدة ، التي تمّ نضجها واستواؤها [لو كان يتمّ شيء في هذه الدنيا نضج واستواء] وصارت لها قواعد ثابتة ، وأصول معروفة ، كاللغة العربية مثلا ؛ إذ الحديث عن أثر الزمن في الماضي السحيق ، والحديث عما عسى أن يكون أثره في المستقبل البعيد ، يخرج بنا من مجال نقد الشعر إلى فلسفة اللغة ، وربما إلى الفلسفة المحضة . وكاتب هذه السطور لا يملك من أدوات ذلك كثيرا أو قليلا .

وأوضح آثار الزمن في ألفاظ اللغة الواحدة أنه يلعب بحفظها ، فتارة يذيعها ، ويشيعها ، وتارة يخفيها وينفيها . وآنا يقرنها بهذا المعنى ، وآونة بذلك المعنى ، تبعا لتباين العصور وتطور الأذواق ، وتنوعها بحسب طبقات المجتمع والعوامل الثقافية والنفسانية والأخلاقية التي تؤثر فيها . فخذ مثلا أثر العصور في اللغة الواحدة ، تجد أن بعض العصور تميل إلى الزخرفة في التعبير ، وبعضها إلى البساطة ، ومنها ما يؤثر اللفظ القصير ، ومنها ما يؤثر التطويل . وحفظ الكلمات تنخفض وترتفع تبعا لهذا . ثم إن ظروف الحياة في عصر ما ، كثيرا ما تباين العصور التي قبله أو بعده . فالجاهليّ مثلا ، لم يكن يهتم بالتجارة أو المعاملة المالية اهتمام البغداديّ العباسيّ . وهذا لم يكن يعرف شيئا عن السكك الحديدية التي هي من الأشياء المألوفة في حياة العصر . ومثل هذا التباين قد ينشأ منه تباين في مدلول الكلمة الواحدة . مع احتفاظها بمعناها الأصلي . كلمة « سِكَّة » مثلا ترتبط في ذهن الجاهلي بسكة النخل ، وفي ذهن العباسيّ إن لم يكن من طلاب الأحاديث والمرتادين لمجالس أبوى العباس ، ترتبط بسكة النقد ، وفي ذهن المعاصر ترتبط بالسكة الحديدية . وكلّ هذه الارتباطات تُضفي جانبا من الغموض على معناها الأصلي ، وتُحصر دائرتها في الاستعمال . وخذ كلمة تجارة مثلا ، أتنظنّ الجاهليّ كان يلبسها لونا قريبا مما نلبسه إياها نحن الآن حين نقول « كلمة التجارة » مثلا ؟ وانظر في قول النهشليّ :

ولقد أروحُ على التّجارِ مُرَجَّلًا مَدَلًا بِمَالِي لَيْثًا أَجْيَادِي^١
 ألا تجدك . مع علمك بأنه قصد الحمّارين بقوله « التّجار » في هذا البيت ، لا يستطيع أن تصرف عن ذهنك صورة « الدكاكين » ذوات الرفوف التي نراها في مدننا العصرية ؟ وهنا ننبه إلى عامل نفسي مهم ، له صلة وثيقة جدا بكلّ ما تحاثة العصور من تطوّرات في اللغة الواحدة وفي غيرها ، وهو عامل تداعى المعاني . وأثر هذا العامل

(١) المفضليات ، من قصيدة الأسود بن يفر : « نام الخلى » .

في تكوين الأذواق من عصر إلى عصر بليغ للغاية . انظر مثلا كلمة « صُرْم » بمعنى « هَجَر » كيف ربطها الذوق منذ أواخر العهد العباسي إلى اليوم بكلمة « سُرم » التي تنطق عند العامة بإبدال السين صادًا ، فكان هذا سببا لتهجينها حتى لو وردت في شعر جاهلي قديم . وبحسبك أن تنظر إلى الدواوين القديمة التي تخرجها المطابع الآن ، لتجد أن المحققين لا يكادون يحجمون عن تغيير المصدر « صُرْم » . الكثير الورد في الشعر القديم بمعنى الهجر ، إلى المصدر « صَرَم » فرارا من المعنى القبيح . مع أن معنى الصَرَم بفتح الصاد عند الأوائل كان يسرى على جملة القطع ، لاعلى الهجر خاصة . وأحسب أن أدباء السودان قبل خمسين عاما لم يكونوا يجدون غضاضة في « صُرْم » الجاهلية ، لجهلهم « بصُرْم » العامية . أما الآن ، وقد استعارت دارجة الشوارع هذه اللفظة من الدارجة المصرية أو السورية ، فجعلتها السودانيون يحسون نحو هذه الكلمة بنحو مما كان يشعر به ابن الأثير . وما قلناه عن « صُرْم » يصح أن يقال عن « كَنيف » الجاهلية ، بمعنى المكان الذي تكتنفه الأشجار أو نحوها ، وعن « مُسْتَرَّاح » بمعنى مكان الاستراحة ، وهي الآن معناها الميرحاض ، وعن « نَكَحَ » بمعنى تزوج ، وعن « أتى يأتى » إن وردت في نحو قول شوقي :

وَطَوَى الْقُرُونُ الْقَهْقَرَى حَتَّى أَتَى فِرْعَوْنَ بَيْنَ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ

وإن كان عامل تداعى المعانى أظهر في هذا الحرف الأخير من عامل التطور الزمني .

الزمن وتطور الأخلاق :

الشعور الأخلاقي يتطور من عهد إلى عهد . فتسقط قِيم ، وترتفع قيم . وقد تبقى القيم في جوهرها واحدة دهورا طويلة ، ولكن مظاهر التعبير عنها تختلف وتباين ، نخذ الفحش (بالمعنى الجنسي) مثلا . ما أحسبه إلا قد كان ممقوتا منذ زمان بعيد ، وبين أُم عديدة . ولكن لاشيء أكثر تفاوتًا من الطرق التي يعبر بها الناس عن

استنكارهم للفحش . منظر الفتيات العاريات الأفخاذ في البلاجات الحديثة فاحش جدا في نظر الكثرة الكاثرة من المسلمين . والطريقة الصريحة التي يتحدث بها كثير من المسلمين عن بعض الأمور الجنسية فاحشة جدا في نظر فتيات البلاج الإنجليزيات أو النرويجيات مثلا . وتأمل جريرا والقرزدق ، كيف يشعر العربي ، لا بل الشرقي المعاصر . . . لا بل قد كان العباسي يقشعر من إقذاعهما ! ألا ترى أنهما لم يكونا ليفحشا كل هذا الفحش لو كان الشعور الأخلاقي على عصرهما ينفر من ذلك ؟ وقس عليهما أصحاب الغزل بالمذكر ، وابن حجاج وابن سكرة والواساني وجماعة ممن ذكرهم صاحب اليتيمة . وما أحسب القارئ العصري إلا مشمئزاً نافرا لو وقع بصره على بعض الألفاظ التي وقعت في أشعار هؤلاء ، والغالب على عصرنا هذا بين طبقات المثقفين وأشباه المثقفين دقة الحس في المقامات العامة ، إزاء كل لفظ من ألفاظ الجماع الصريحة ، والألفاظ التي لها مساس بالفضلات الجسمية . وهذه الدقة في الحس ناشئة عن نوع من النفاق الاجتماعي ، مصدره الشعور الأخلاقي السائد - وهو شعور مستمد من القيم البرجوازية الأوروبية . وأوضح دليل أقدمه لك في هذا الصدد - سوى ما سبق من الأمثلة - هو أن الفقهاء ، وقد كانوا أجراً الناس على ذكر ألفاظ الجماع في معرض الدرس ورسائل الطهارة وما بمجرهاها ، لا يكادون يقدمون اليوم على التلفظ بأمثال : « أظفت المرأة : أي أدخلت يدها بين شفريها » ، وأمثال : « حتى تغيب الحشفة في فرج » ، ونحو : « مَدَى وَوَدَى وَمَنَى » في المقالات التي ينشرونها في الصحف العامة والمجلات الدينية . وقد كانت مجالس الفقه في الزمان الماضي هي المكان « المحترم » ، الذي يمكن أن ينفس المرء فيه عن الكبت الأخلاقي المتعلق بالألفاظ ، إن لم يكن هذا المرء من شعراء المحبون والسخف أو هواتهما . وقد تغيرت الأحوال الآن ، فأصاب الفقهاء لَفْح من تزلزلت البرجوازية الأوروبية ، عن طريق طبقة المثقفين من الأفندية ، فجعلوا يتزمتون كما تقتضي روح العصر . وأوصدت الأبواب أمام الأشعار الخليعة ، فانزوت إلى أركان ياحظها منها الذوق

العصري شَزَرًا . وأصبح المجال « المحترم » الوحيد الذى يمكن أن ينفس فيه المرء عن رغبته فى التعبير الفاحش . هو مجال علوم النظر الحديثة ، وبخاصة علوم الاجتماع كالانثروبولوجيا . ولبروفسور مالىنوسكى فى وصف القبائل الممجية ، مثل سكان ماليزيا وجنوب الباسفيك ، شطحات شبيهة بشطحات أبى حامد الإسفرائينى فى معراض تعيين مواعيت الإمساك عن العلاقات الجنسية فى شهر رمضان .

والحق أن محل التصريح بالألفاظ الجنسية وما إليها . لاهو الفقه . ولا هو علوم النظر ، لأن هذه جميعا تحاول علاج الأشياء من ناحية موضوعية . واتخاذها مجالا للتنفيس عن هذا العبث الإنسانى ، يفسد موضوعيتها إلى حد كبير . وقد خطا انطبّ والبيولوجيا — عن طريق المصطلحات الجافة — خطوات نحو التحرر من هذه الذاتية العابثة . ولا بد أن تلحق بهما الانثروبولوجيا وعلوم الاجتماع ، إذ لا يستغنى علم حديث عن المصطلحات . فإن فعلت كل هذه ذلك ، فإنه من المؤسف حقا أن يفتح الناس بابا علميا آخر ليتخذوه مجالا للعبث ، ربّما ينضج ويكتمل ، أو يذوى ويموت . ذلك بأن المحل الوحيد اللائق للتصريح بالألفاظ الجنسية ونحوها ، هو مجال الأدب بفرعيه : الشعر والنثر . وما زال تدخل العامل الأخلاقى ، أو النفاق الاجتماعى منذ زمان بعيد (وقد زادت سطوته فى عصرنا الحاضر) يحدّ من حرية الأدب فى هذا المضمار ، ويُجبره على الثورة بعد الثورة . فأنا تكون ثورته من النوع الفاسق الخمور ، كما فى شعر أبى نواس ؛ وأنا من النوع الضاحك المستهتر إلى درجة الكليية ، كما فى شعر ابن حجاج وابن سكرة ؛ وقد تكون من الضرب الخائق المعقد الساخر الملتوى ، كما فى أدب د . ه . لورنس ، أو المسلى المتخابث ، كما فى قصص ألف ليلة وليلة وأساطير شوسير . ومن الإنصاف لمؤلفى ألف ليلة وليلة ولشوسير وبوكاشيو وصاحب الأغاني ، أن نقول : إن صراحتهم ليس فيها عنصر التحدى والشذوذ ، الذى نجده عند أبى نواس وبنار وابن حجاج و د . ه . لورنس وبعض المعاصرين ، وإنما قد أطلقوا أقلامهم فى غير ما خوف ولا وجل ولا طلب لتحدى الشعور

الأخلاق والمقاييس الاجتماعية . والفضل في ذلك يرجع إلى أنهم لم يعيشوا في بيئة القرن العشرين المعقدة ، ولا بيئة القرن التاسع عشر الأوربية ، كما يرجع إلى صفاء نفوسهم وانبساطها .

المكان :

نتحدث هنا عن أثر المكان في اللغة الواحدة . ثم نذكر القارئ بما ذكرناه آنفا من أن المكان ما هو إلا أحد أبعاد البيئة الثلاثة ، وكل ما هو واقع تحت تأثيره فهو أيضا واقع تحت تأثير الزمان والعصور والطبقات وما إلى ذلك .
وأثر المكان في ألفاظ اللغة الواحدة أوضح من أن يدلل عليه ، بحسبك برهانا تعدد اللهجات . مثلا كلمة «حَبُوبَة» في الشام معناها : «حبيبة ، أو خطيبة» ، وفي السودان معناها «جدة» . ولو سألت شامي سو دانيا «ما عمر حبوبتك» ؟ ربما أجاب : ثمانون أو تسعون ، ولا يملك الشامي إلا أن يدهش إزاء هذا الجواب ، ويعجب لهذا الذي يخطب من ذهب الدهر بكلها ، وقد غير الشعراء مَنْ خَطَبَ النَّصَفَ من النساء ؛ وقالوا فيها :

وإن أتوك وقالوا إنها نصف* فإن أفضل نصفها الذي ذهب
ومعاجم اللغة مفعمة بالاختلافات التي تحملها كلمة واحدة بين لهجات العرب الكثيرة . كلمة تَخَوَّفَ مثلا معناها عند هذيل : التنقص ، وقد وردت في التزليل بهذا المعنى ، وقد زعموا فيما زعموا أن مالك بن نويرة لم يقتله إلا جهل ضرار ابن الأزور بلغة قريش ، فقد أمره خالد أن يدفئ قتيله : فما كان منه إلا أن أبرده بردا لادفء بعده إلا في نار جهنم .

ومن أبلغ آثار المكان على الكلمات (سوى اختلاف معانيها وتنوع مدلولاتها من موضع إلى موضع) ، ما يضيفه على الكلمة الواحدة من لون حسن أو لون قبيح

من دون تأثير كبير في جوهر مدلولها . مثال ذلك كلمة « طِيَّاز » ، فهذه الكلمة تستعمل في مصر مكان « أرداف » المستعملة بشمال السودان ، و « كَفَّل » و « صُلَّب » المستعملتين في وسطه وسائر أجزائه . ولن يفكر سوداني قطّ أن يستعملها هذا الاستعمال ، لأن معناها عنده مرتبط بلون قبيح يدخلها في فصيلة الألفاظ الفاحشة . وكلمة « طيب » لها لون خاصّ في مصر لا يوجد في السودان ، وهكذا ، ولا فائدة في الاستكثار من الأمثلة ما دام المقصود واضحا بينا .

الطبقات :

كما يؤثر المكان والزمان في الكلمات ، فتختلف معانيها وألوانها ودرجاتها من الحُسن والقُبْح ، تبعا لاختلاف الأمكنة والأزمنة ، فكذلك تفعل الطبقات الاجتماعية : الألفاظ المتداولة المألوفة بين السودانيّين الآن مثلا ، غير تلك التي كانت مألوفة بالأمس ، وغير تلك المألوفة في مصر الآن أو بالأمس ، وهي بين السودانيّين أنفسهم تتباين ؛ فالألفاظ العلية غير ألفاظ السفلة ، وألفاظ أهل الحرف والصناعات مباينة لألفاظ أهل الأقلام والمتقنين . وألفاظ المتصلة غير ألفاظ المهذّبين المحترمين . لا بل إن النساء يتداولن بينهن ألفاظا لا يتداولها الرجال . وهن في كلّ ذلك يختلفن باختلاف طبقاتهن . وهذا الذي نراه من تباين ألفاظ اللهجة الواحدة المستعملة في السودان تبعا لتباين الطبقات ، موجود نظيره في الشّام وفي مصر وغيرهما من الأقطار الناطقة بالعربية .

والطبقة التي كان أمرها عاليا في دولة الأدب إلى القرن الماضي في الشرق العربيّ ، هي طبقة العلية من علماء وأمرء وحاشية تدور حولهم . ثمّ آل أمر الأدب إلى الطبقات المتوسطة في عصرنا الحاضر ، وليس معنى كلامنا هذا أن طبقات السفلة والعامة والسوقة والغوغاء لم يكن لهم أدب في الماضي ، كلا ؛ ولكن أدهم كان من نوعٍ

محتقر . لم تنسح له صدور الكتب . وانفراد العلية بأمر الأدب في الماضي ، كان يملئ على الكتاب والشعراء ذوقا خاصا في تخير الألفاظ ، هذا الذوق تسيطر عليه الرغبة في تملق الفضائل الاجتماعية التي يحرص عليها العلية ، والازدراء لكل شيء يصدر من السفلة ؛ فكلمات السوق والغوغاء كان محرما على الأديب استعمالها ، خشية أن يتسرب منها قمل أو يبق إلى ملاءة الأمير أو الوزير ، أو ثياب الحاشية الظرفاء . والكلمات التي لا تستعملها السوق ، ولكن يجوز أن يربطها العقل بظاهرة سوقية ، تجري هذا المجرى . وقد عابوا على المتنبي قوله :

وَكُلُّ طَرِيقٍ أَتَاهُ الْفَتَى عَلَى قَدْرِ الرَّجُلِ فِيهِ الْخُطَا

لا شيء إلا لأنه استعمل مثلاً تنطق به العامة . وقد مات كثير من الكلمات القديمة المعبرة لتعاطى العامة إياها ، وسمي هذا التعاطى بالابتذال والسوقيّة . وكلمة : « عِلْق » التي يتمثل بها البلاغيون كثيرا ، ما دهاها فأنزلها من مرتبة « العلق النفيس » إلى معنى الأُبنة ، إلا استعمال الدهماء لها ، ممن تكون المحبة والغرام والشوق والعشق ونظائرها من الكلمات عندهم من قبيل مرادفات المعنى الآخر . وامتد استولت الطبقات المتوسطة على دولة الأدب ، أخذ كثير من أساليب العلية الماضين وألفاظهم في الانقراض ، [وحسبك دليلا على ذلك ، أننا لاستعمل الآن طريقة القاضي الفاضل في استهلال الرسائل ، ولا نتكلف الكلمات الديوانية التي كان يتكلفها كتاب القرن الماضي] ، كما تسرب كثير من الكلمات التي كانت تُعدّ مُبتذلة وسوقيّة إلى ساحة الأدب الرفيع .

ولا أشك أن انتشار القراءة مكان الأمية التي كانت غالبية على الناس ، وتغلّب الصحافة على ميدان التعبير في أكثر البلاد ، سيجلبان تغييرا عظيما جدا في الأساليب الأدبيّة . وشدة ما أخشى أن يصير تملق الدهماء هو الغرض الأدبي الأول . وهذا بطبيعة الحال سيميت أكثر الألفاظ التي تُستحسن الآن ، ويبدل مكانها ما نسميه سوقيا ومُبتذلا . ولعلّ جريدة الـ Daily Mirror البريطانية ، مثال من أمثلة هذا الاتجاه الخبيث في الأدب الحديث .

هذا ، ومما يلائم ما نحن بصددده ، أن نذكر أن الشيوعيين السوفيتيين قد بلغ بهم الجنون المذهبي ، والتطرف السياسي ، أن شغلوا أنفسهم دَهْرًا بتحديد موقف اللغة من الطبقات . وقد كان بعضهم فيما نرى إلينا ينادون بمحو اللغة الروسية الأدبية محوًا تامًا ، زاعمين أنها قد كانت لغة « الأرستقراطية » و « البرجوازية » و « الظلم » وهلم جرا . ويدعون إلى استبدالها بلغة أخرى شعبية ، أشد اصطباجًا بلون « الواقع المادى » كما يقولون ، ولكن ستالين تدخل في الأمر ، لا أدري أبالحجة أم بالسيف ، وأقنع المتطرفين بأن اللغة القديمة ، وإن كانت من اختراع ضباع القياصرة والأرستقراطية ، فهي صالحة كل الصلاحية لخدمة « الكادحين » ، والتعبير عن آلامهم وآمالهم . فارعوى المتطرفون وأناوبوا . وكنتى عزاءً لهُؤلاء المتطرفين الذين قهرهم ستالين ، أن الصحافة الحديثة المهجينة سائرة في ضوء نظرياتهم بخطا حثيثة . وعندما تَدْتَصِرُ الألفاظ السوقيَّة « الواقعية » على ألفاظ المتأدبة من الطبقات الوسطى ، التى ورثوها عن العلية والأرستقراطية الماضين ، فرحى مرحى لعلق وصُرْم بالمعنى المبثذل . والويل لعلق مَضِنَّة ، ولنحو « ولشُرِّ وَأَصِلِ خُلَّةَ صَرَامُهَا » ، ومن يدرى فر بما امتدت أيدى الحظوظ حتى تنتشل أمثال جَحْمَرَش ، وخَنَفَقِيْق ، وزُلْخَة . من أعماق المعاجم ، لعدم ارتباطها الآن بطبقة من الطبقات . ولعلها - أعنى جحمرشا وأخواتها - لو أتيح لها أن تتمثل بالشعر الآن . أن تنشد من قول أبى العلاء المعرى بيتيه :
سيطلُبْنِي رزقِ الذى لو طلبته لما زادَ والدُنْيَا حظوظٌ وإقبالُ
إذا صدق الجَدُّ افترى العَمُّ للفتى مكارم لا تُكْرِى وإن كَذَبَ الحالُ

المودة :

أو الموضة ، وهى كلمة إفرنجية يقابلها بالإنجليزية Fashion . و « المودة » بنت البيئة والتطور الزمنى . فهى على هذا فرع من ذوق العصر والمكان والطبقة . وهذا أو ان تذكر القارىء بمكعب البيئة الذى وصفناه آنفا . « فالمودة » تختلف من عصر إلى عصر فى الطبقة الواحدة ، ومن طبقة إلى طبقة فى العصر الواحد ، ومن بين فترة

إلى فترة في العصر الواحد والطبقات المختلفة ، كما أنها تختلف باختلاف الأمكنة في كل ذلك . وأهم ظواهر « المؤدّة » . أنها قصيرة العمر ، وأنها مع ذلك لاتموت مرة واحدة — أعني أنه إذا ماتت « مؤدّة » ما في فترة من الفترات ، فكثيرا ما تنبعث في فترة أخرى مقبلة كأنها شيء جديد . وإذا ماتت بين طبقة من الطبقات ، فكثيرا ما تشيع بين غيرها من دونها أو فوقها . وإذا كسدت سرقها في مكان ما ، فربما تنفق في مكان آخر . « والمؤدّة » تتناول الحديث والألفاظ ، كما تتناول غير ذلك من مظاهر الحياة ، كالملبس والمأكل والأغاني وضروب التسلية ، ومختلف مذاهب السلوك العام والخاص . والأدباء ، من ناثرين وناظمين ، من أشدّ الخلق تأثرا بعامل « المؤدّة » ، بالرغم مما يدعونه من الحرص على الخلود . والارتفاع فوق القيود المادية التي تمثلها عناصر البيئة المختلفة . خذ هذه الألفاظ : الميثارة ، الأراهر ، الأحلام ، الظلال ، الأشباح ، الأحاسيس ، المشاعر ، البلبلة ، الرفش ، المعول ، الآهات ، الإشعاع ، الهدهدة ، يناغى ، ينغم ، وهلم جرا ، ألا تجدوها محببة إلى طائفة كبيرة من أدباء اليوم ؟ أتخسب أن لها في ذواتها جرسا مفرحا ؟ لا أشك أن بعض التافهين يحسب ذلك ، ممن قصاراهم في النقد أن يهمسوا ويخفصوا من جفونهم ، ويدعوا أنهم قد غمرتهم سبحات نور الفن . ولكن مالنا وللتافهين . فالذى لايقبل الجدل أن « المؤدّة » هي التي حسنت هذه الكلمات .

وهنا نتساءل عن الأسباب التي تبعث « المودات » من حين إلى حين . والجواب عن هذا يطول . وربما أخرجنا عن غرض هذا الكتاب : وبحسبي أن أقول : إن الفراغ والنفاق والضعف البشرى والزهو وطلب التبجح ، كل ذلك من بواعث « المؤدّة » ، وإن شئت أن تضيف إلى هذه المناقص شيئا مما ذكره فرويد وتلاميذه ، فأنت في حلّ من ذلك . وفي دولة الأدب بخاصة يكفي أن نشير هنا إلى أن تطوّر المذاهب الفنية . والآراء السياسية والاجتماعية ، له أكبر أثر في بعث « المودات » الأدبية . مثلا المذهبُ الوراء الواقعي^١ في الفنون الجميلة ، أدّى إلى اختراع ألفاظ

(١) نستحل لأنفسنا هنا إدخال الـ « الموصولة » على وراء تبعاً لمن قال :

مَنْ لَا يَزَالُ رَاضِيًا عَلَى الْمَعَةِ فَهُوَ حَرِيرٌ بِعَيْشَةٍ ذَاتِ سَعَةٍ

[أو استعمال ألفاظ] خاصة بين الفنانين ، سرعان ما تلقفتها جمهرة الأدباء ، وصارت « مودة » بينهم إلى حين . والأدباء مبتلون بادعاء المعرفة لما لا يحسنونه منذ أن وضع ابن قتيبة كتاب « أدب الكاتب » ، وقبل ذلك بدهور . والمذهب المادى الجدلى فى السياسة أدّى إلى اختراع ألفاظ خاصة ، سرعان ما التقطها الأدباء ، ولججوا بها فى نثرهم وشعرهم . والأدباء فى الشرق أسرع تهاافتا إلى « المودات » من إخوانهم الغربيين ، لفقدان الأصالة الفكرية بينهم فى الكثير الغالب ، فهم يعوضون عن هذا الضعف باستحداث « المودات » ؛ إذ « المودة » أبدا تلبس لونا برّاقا ، يجعلها للناقد السطحي أشبه شىء بالأصالة .

خذ الكلمات : « كِفاح » ، « كَدْح » ، « استغلال » ، « تميع » وهلم جرا . فكل هذه كلمات حسّنها « مودة » عابرة وثيقة الاتصال بالمذهب اليسارى السياسى ، وجعلت لما عند بعض عشاق هذا المذهب ، من متوسطى الثقافة ، ردينا خاصا . ومما يحسُن ذكره فى هذا المجرى ، أن كلمة Peace الإنجليزية ، ومعناها « السلام » ، قد ألبسها استعمال الشيوعيين ورفقائهم لها صبغة خاصة ، حتى إن جريدة الأيزيرفور The Observer والتمس The Times وضرائهما من الصحف الرزينة ، اضطرت إلى طبع هذه الكلمة بين علامات التنصيص هكذا « Peace » كلما دعت الحاجة إلى ذكرها ، وما لبث هذا التنصيص أن برز فى صور صوتية على ألسن الخطباء وفى المجالس ، حتى صار فى ذاته « مودة » .

ومن أهمّ ظواهر « المودات » أبد الدهر أنها تثير حولها جدلا كثيرا . ولا يمكن أن يقف المرء منها موقف المحايد . فأنت إما تعجبك الجُمّة الغلامية فى شعور النساء ، وإما لا . وإما تميل إلى « ذنب البطة » فى رءوس الرجال ، وإما لا . والغريب فى الأمر أن نحملك لهذا أو ذاك يبوخ مرة واحدة بمجرد اختفاء « المودة » . وكذلك تعصبك على هذا أو ذاك . فانظر كيف تعبت المودة بالعقول ؟ وعلى هذا أن يعين على تفهّم

أثرها البليغ في الأدب ، وعبثها بأساليبه وألفاظه ، وتحكمها المفرد في أذواق المؤلفين .
والنقد .

المزاج والألفاظ :

المزاج فرع من البيئة ، وهو خاص بالأفراد . وبما أن الأفراد يختلفون في الآراء والأهواء ، وفي كثير من الطبائع والمشارب ، سواء أكانوا في عصر واحد ، أم من طبقة واحدة ، أم من بلد واحد ، أم من أب وأم وظروف متشابهة كل التشابه ، فالألفاظ تتأثر بهذا الاختلاف جدا . والعوامل النفسانية المتعددة كالشعور بالنقص ، وكهجة النفخ ، والرغبة في الشذوذ ، وكتداعي المعاني ، وكانقسام الشخصية ، على تفاوت كل ذلك في الضعف والقوة بحسب الأنفس الواقعة تحت تأثيره ، يخلق أمزجة مختلفة في تذوق الألفاظ . كلمة « سلسل » قد تبدو لطيفة مليحة عندى أنا ، ولكن آخر ممن لا يستطيع أن يصرف ذهنه عن « سلس البول » الذى مرّ به في دروس الفقه ، قد لا يستحسنها . وكلمة شجاع قد يمرّ بها قارئ في موضع فلا يرى بها بأسا ، ويراه آخر فتثير الّقى في حلقه . والمرأة التى يدعوها زوجها « يا حبيبتى » و « يا روحى » فى مقام التهكم ، ربما تنفر من هذين اللفظين إن عرضا لها فى شعر أو نثر . والخطاط الذى يعجبه رسم الميم على الورقة ، قد تروقه أمثال مكلوم ومحروم ومزكوم ومحزوم . وإن كان يجد عناء فى رسم الدال ، فربما يكره نحو : ودود ، ومودة ، ودار ، ودهماء . وقد يعجب بعض الناس الصنفير الذى فى حرف الصاد لارتباطه فى عقلهم الباطن بمعنى من المعاني ، فيودون أن لو كان الشعر جميعه من قبيل قول أبى الطيب :
وأَمْوَاهُ تَصِلُ بِهَا حَصَاها صَلِيلَ الحَلْيِ فى أَيْدِي الغَوَانِي

ومهما يكن من شئ ، فالمزاج لا يخضع لأحكام المنطق ، ومامن ناقد أو شاعر أو ناثر ، إلا وهو واقع تحت سيطرته . وكثير من النقاد يتجنون فى أحكامهم على الشعراء .

بحكم المزاج فقط . أذكر من هذا الباب أن المرحوم الرافعي تجنى على العقاد جنابات
عِدَّة من هذا القبيل . في كتابه على السَّفُود . مثلاً نقده : « آه لو يقرب البعيدُ الخ »
فقد حكم مزاجه . وافترض أن البعيد هنا بمثابة « ابن الكلب البعيد » . وكثير من
الشعراء تستلطف أمزجتهم كلمات خاصة ، فيتعبون الناس بتكرارها . من ذلك « قم »
في شعر شوقي . و « ذا » عند المتنبي . والناثرون يجرون هذا المجرى .

وعامل المزاج كما لا يخفى داخل تحت تأثير العوامل التي ذكرناها آنفاً ، إذ هو
لا يسلم من أن يصطبغ بلون البيئة على أية حال . إلا أنه لقوة اتصاله بصميم الفردية
الإنسانية أهم العوامل جميعاً . وله القوة المرجحة في ازدياد بعض الألفاظ ، واحترام
بعضها . وبما أنه موغل في الذاتية ، فهو العنبة الكئود في سبيل النقد ، كلما أراد أن
يطلق أحكاماً عامة . ويضع مقاييس تقاس بها القيم الأدبية . ومع هذا فالناقد الحق
لا يني يبحث عن وجه علمي صاف ، يهتدى به في دراساته . وهذا مطلب عزيز ،
وقصارى جهده أن يقتدى ما استطاع بأذواق النُقَّاد الأفذاذ الذين سبقوه ، ثقة بأن
أمزجتهم قد ارتفعت عن مُستوى الذاتية المعتاد ، لما صقلها من مواظبة العلم والدرس
والتجربة والتحرى . ولكن تحديد النُقَّاد الأفذاذ نفسه محل للجدل . وجميع ما ذكرنا
من العوامل يؤثر فيه تأثيراً شديداً .

مقاييس الألفاظ

مما تقدم يرى القارئ أن ابن الأثير على سطحيته لم يكن مخطئاً كل الخطأ حين
زعم أن الكلمات تنقسم إلى حسن وقبيح بطبيعتها ، إذ أحكام البيئة والمزاج و « المودات »
تُلَوَّن كثيراً من كلمات اللغة بألوان من الحُسْن والقُبْح . لا يستطيع المرء أن يصرف
ذهنه عنها . وخطأ ابن الأثير الأساسي في أنه لم يتنبه إلى أن هذه القسمة منشؤها
ظروف الحياة الطارئة ، واستعمال الناس الخاضع لقوانين التغيير ، لانفس طبيعة
اللغة من حيث مخارجها . وقد جرَّ هذا الخطأ ابن الأثير إلى أن يفرض ذوقه وذوق

طبقة خاصة من معاصريه، على طلاب الأدب العربي جميعا، من لدن معدّ بن عدنان إلى يومنا هذا .

ومذهب الجُرْجانيّ: في أن الألفاظ في ذواتها مجردة من الحُسْن والقُبْح، حتى تحسّنها التراكيب أو تقبّحها، على عمقه ومثانته، مبنّى على تناسي العنصر البشريّ، كما قد أسلفنا من قبل، ولو قد كان الناس كلهم يفكرون تفكيراً علمياً موضوعياً، لحقّ عليهم أن يتقيّدوا بقواعد عبد القاهر، في حكمهم على الأساليب الأدبية، ولكانت هذه القواعد نهاية في الجودة والدقّة. ولكن الناس يحسّنون ويقبحون ويستهمجون ويستملحون، بحسب أمزجتهم وببشيتهم و«مُودآتهم». وما أكثر ما يقسّمون الموسوعة اللغوية بأجمعها إلى حسن وقبيح، قبل أن تنتظمها التراكيب. متأثرين بظروف حياتهم، وأذواق عصورهم. ولا شكّ أن التأليف يتأثر جدا بكل هذا. أيّ الأدباء يقدم على استعمال كلمة يستسخرها معاصروه، مهما تكن قوية في أداء المعاني التي يريدونها؟ وأيهم لا يطمّوه استحسان معاصريه لبعض الألفاظ، أن يستعملها، كيما يسرّهم بها، ويكسب ثناءهم؟ قليل جدا من الأدباء من يأنفون من تملّق معاصريهم. وهؤلاء مبخوسو الحظّ في الكثير الغالب.

والحقّ، أنه لا مذهب الجُرْجانيّ، ولا مذهب ابن الأثير يصلح أساسا لأن تُقاس به ملاحظة الألفاظ أو سماحتها. وماتماز به قوّة جرّسها أو ضعفه. لا بل إن كون الألفاظ بطبيعتها أحياء متحرّكة متغيرة متجدّدة، يجعل أيّ مقياس يُقاس به جمالها نسبياً جدا. وعندى أن أفضل ما يعتمد عليه النّاقد في هذا الباب، هو القاعدة القديمة: «البلاغة الإيجاز».

ذلك بأن المعاني هي المرادة بالألفاظ. والمعنى قد يكفي في التعبير عنه لفظ واحد. كما قد يحتاج إلى أكثر من ذلك. فمتى زاد الأداء اللفظي عما يحتاج إليه المعنى من كلمات، كى يصير ظاهرا واضحا، فتلك الزيادة إما ناشئة عن عي، وإما عن قصد.

إلى التزيين والتحسين . ومحلّ الخلاف ليس هو الزيادات الناشئة عن العى والعجز . وإنما هو الزيادات التى أريد بها التزيين . فهذه تخضع لحكم البيئة ، وتختلف نظرات الناس إليها باختلاف الدهور والأمكنة . وإذا جاز لنا أن نشبه المعانى المؤداة فى القدر الذى تطلبه من الكلمات ، بالصور البشرية العارية ، فالزيادات المراد بها التحسين والتزيين ، تكون بالنسبة إليها ، بمثابة الثياب والأصباغ والحلى والتهيو ، وما إلى ذلك بالنسبة إلى الصورة البشرية . والمُشاهد فى كل بيئة ، وفى كل دهر [إلا بين طبقات من المتنطسين] أن الحسناء الحالية مفضلة على الحسناء العاطلة . ولكن الغريب فى الأمر أن ما يعد حلياً ههنا ، قد يعد شئنا هناك . مثلاً ، بعض الحسنات المصريات يشمنّ خدودهنّ وأذقانهن بالخضرة الثابتة . ويخبرنا لسيد أن العربيات الحسان كنّ يجعان على أيديهن كيفاً من النور يجددن خضرتها كلما بهتت ؛ قال فى المعلقة :

أَوْ رَجَعُ وَاشِمَةِ أُسِفَ نَوُورُهَا كَيْفَ تَعَرَّضُ فَوْقَهُنَّ وَشَامُهَا

وفى شعر هُدُية مايفيد أن الغوانى كنّ يضعن على أنوفهنّ الجادى ، فيبدون كأنهنّ راعفات ، قال :

تَضَمَّخُنَّ بِالْجَادِى حَتَّى كَأَنَّمَا الْأُنُوفُ إِذَا اسْتَعْرَضْتِهِنَّ رَوَّاعِفُ^١

والعربيات الإفرنجيات ، يضعن الحمرة على الشفاه . والشرقيات يتحلين بالذهب ، ويخضبن بالحناء . وبعض الزنجيات يثقبن شفاههنّ حتى تصير كشافر البُعران . وما زالت الموسى نجرى فى حدود الحسنات من السودان منذ دهر بعيد . وقلّ أن تجد قوماً ألفوا عادة ، يستحسنون غيرها . فالزنجية ذات المشفر المثقوب ، كرهية المنظر عند البُجّاوية ذات الأنف الذى فيه السبرة . والهندية التى ترسل شعرها طويلاً متدلياً ، وتكشف عن ساعد ، وتضع على جبهتها نقطة حمراء ، سمجة الصورة فى عين أمثال مارلين مونرو ، ممن يصنّفن الجمّم ، ويرسمن الحواجب بالقلم .

وبعد أيها القارئ ، فلعلّ هذه الأمثلة توضح لك أن التحسين والتزيين أمر نسبيّ للغاية . وأزبدك إيضاحا : فالمرأة الحميلة التي لاتعتمد إلى نوع من التحسين والحليّ ، ولا تغير صورتها التي براها عليها الخالق بأيّ تغيير ، مقبولة عند أكثر أجيال الناس . نعم : قد تقول لها بعض نساء الزنج : هلاّ ثقتب شفتك وضخمتها يا هذه ؟ وقد تقول لها بعض الهنديات : هلاّ تحليت الذهب ونقطت الجبهة ؟ وقد تقول لها بعض المصريات : اسم الله على هذا الحنك ، لو جعلت عليه سمة خضراء تصير لها جميع القلوب هواء ؟ وربما رغبت بعض قهّرمانات السودان النيلىّ في تشليخها ، وفيما هو شرّ من ذلك ، لو قد وجدن إليه سييلا . ولكنهنّ جميعا قد يحسدنها في السرّ على سلامة بشرتها من الصنعة والتغيير .

وكذلك التعبير والأسلوب ، فالإيجاز هو المقياس الصحيح لجمال اللفظ وصورته وجوّسه . وما من لفظ أدّى المعنى أداء تاما من دون زوائد ، إلا كان خاليا من العيب . لاتنقصه من آلة الجمال إلا الزينة التي هي موضع جدل وخلاف ، كما أن قيمتها نسبية إلى حدّ بعيد ، بحيث لايدرك أيّ في الحقيقة قُبْح أم حُسْن . وحدّ الإيجاز أن يكون اللفظ مقتصدا فيه اقتصادا لا يخلّ بالغرض ، ولا تنفعه الزيادة . ومهما يكن من تعبير أوجز فيه صانعه ، واستوفى الغرض ، إلا كان جوّسه حسن الوقع في النفس ، إذ النفوس يعجبها وقع اللفظ القصير ، إن كان يحوى الفكرة الطويلة ، والمعنى الضخم .

ضرورة التحسين :

إذن فالمقياس الصحيح الذي نخرج به من هذا التمهيد . لمعرفة جودة الجوّس اللفظيّ : هو الإيجاز . ويترتب على هذا إحدى نتيجتين :
أولا — أن نحكم على كلّ أداء زاد فيه اللفظ على المعنى ، بأنه غير جيد ،

محتجين بأن الذى عسى أن يكون فيه من المحاسن اللفظية ، إنما هو حسن اصطناعي وهمي ، لاحقيقة له ، إلا من جهة نسبية بحتة ، شأنه في ذلك شأن الشفة الزنجية المثقوبة ، والجهة الهندية المنقوطة ، والحنك المصرى الموشوم ، والحدّ السودانى « المُشَلَّخ » .

ثانيا : ألا نرفض الزوائد إذا وجدناها في أداء ما ، وألا نحكم عليها بالصناعة والنسبية والوهمية ، التى تجعلها فاقدة للقيمة . ولكن تكلف أنفسنا الجهد الجهد في أن نعرف الذوق العام ، والتقاليد الأدبية ، وظروف البيئة الفنية ، التى دعت إلى مثل هذه الزوائد ، وهذا يتطلب منا دراسة لتأريخ البيئات الأدبية ، و « الموضات » الأسلوبية المختلفة . فإذا فرغنا من كل ذلك وعرفناه جيدا ، نظرنا إلى ما يقع بأيدينا من آثار شعرية أوثرية ، فيها زوائد المحسنات ، بالنظر إلى بيئاتها وتقاليدها ، وحكنا عليها في ضوء المعرفة التى ألمنا بها .

والسبيل الأولى فيها تطرّف وإجحاف بواقع الأمور . فمع أن الجمال العارى من الزينة [تذكر تشبيه الصورة البشرية الذى قدمناه] مقبول على وجه الإجمال ، إلا أن الزينة في حدّ ذاتها شيء كالضرورى بالنسبة إلى الطبيعة البشرية ، لا يمكن تجاهله مهما يكن اعترافنا بما يدخل الزينة من اختلاف البيئات والأمزجة .

ألا ترى أن الصورة الآدمية لا تتعرّى من زينة الملبس وما يميزه إلا نادرا ؟ ألا ترى أن الجمال العارى نفسه لا يخلو من زينة وزركشة تخطّها يد الله ، فضلا عن ، وزيادة على ، سلامة التقاطيع ، واستقامة القامة ، وصحة البنية ، وغير ذلك من الصفات التى يكون بها إفصاحُ الخالق بمعنى الصورة البشرية من غير ما زوائد ؟ خذ نونات الحدود مثلا ، وجعُودة الشَّعر ، وبلا تينيتته ، والحال الذى في الحدّ ، وشدة اللّعنس في الشَّفّة ، وغير ذلك من هذه المظاهر الطبيعية التى تريد جمال الحميل — ألا ترى أن كل ذلك ضرب من التزيين والتحسين زاد على مجرد السلامة والقبول والبهجة ؟ فإذا كان المبدع الصانع الخالق نفسه لا يدع ما يخلقه من زخرفة وتزيين ، ليس أقرب في حقّ البشر أن يكونوا أشدّ رغبة في التزيين ، وأقوى تعلّقا به ؟ ثم

ألا تحسب أن البشر إنما أخذوا فكرة التزيين نفسها عما خطته يد القُدرة والطبيعة ؟
خذ مثلاً صَبْغَ الشفاه بالإثمد عندنا في السودان . ألا يخطر ببالك أن ذلك محاكاة من
الناس لما يرونه في بعض الشفاه من لَعَسٍ طَبَعِيٍّ ؟ وكذلك ما كانت تفعله العرب
من إسفاف اللِّثات النَّوُورَ والكحل ؟ وكذلك الصبغ بالحمرة عند الإفرنج ؟ — ألا
ترى أنه محاكاة لما يرونه من تورّد طبعيٍّ في بعض الشفاه الحسان ؟

هذا ، وكما أن الرغبة في التحسين ناشئة عن طلب الزيادة على جمال الطبيعة ، بمحاكاة
بعض مظاهره ، فهي أيضاً ناشئة عن الرغبة في الحدّ والتقليل من قيمة الجمال الطبيعي ؛
ويبدو لي أن لالحسد ضلعاً قوياً في هذه الظاهرة الثانية من مظاهر التحسين . ألا ترى
أن الإنسان إذا استحسن صفةً ما في شخصٍ آخر ، بدا له أن يضاهي ذلك الإنسان
في تلك الصفة ، وتمنى أن لو قد كان ذلك الإنسان ليس بأكثر منه حسناً ، أو
ليس بحالٍ لتلك الصفة التي تكسبه ما تفرّد به من الجمال ؟ لا ، بل لتمنى أن لو يجد
سبيلاً إلى أن يسلبه تلك المزية سلبياً حتى يكون مساوياً له ، غير متميز عنه بشيء .
ألا ترى معنى أن صَبْغَ الشفاه بالإثمد يراد منه حِرْمانُ اللَّعَساءِ لَعَسَها الطَّبَعِيَّ ،
كما يراد منه إكساب غير اللَّعَساءِ لَعَساً صناعياً ؟ وقلْ مثل ذلك في إسفاف اللِّثات
النَّوُورَ والكُّحْلَ ، ووشم الحدود بالحضرة ، وثقب الآذان ، وتضخيم الشفاه ،
وغير ذلك من ضروب التشويه التي تسمى زينة وتجميلاً . إن الناس يَنفَقُسونَ على
التجميل جماله . وعلى « الممتاز امتيازَه » . ومن أجل هذا فهم يحتالون على المساواة
بشئ الطرق . ولعلّ التجميل التقليديّ ، الذي يرثه مولود عن والد ، وجيل عن
جيل ، وتختلسه أمة من أمة ، ويحاكي فيه شعبٌ شعباً ، من أخطر ما عثرت عليه
البشرية من أسلحة المساواة .

هذا . ونعود الآن إلى ما كنا فيه .

والسبيل الثانية فيها تكافؤ شديد . لأن معرفة الأذواق و « المؤدات » القديمة

تتطلب أمرين :

أولا : تحليل المادة التي بأيدينا من أدب القدماء ، وعمل قوائم « بالكشيات » التي كانت تغلب في هذا العصر أو ذاك — وهذا أمرٌ ممكن مع بذل الجهد الجهد — أقول : ممكن من وجهة النظر الدراسية البحتة ، إلا أنه لابد من التنبيه على أن ظروف الحياة في بلادنا لا تمكن من هذا النوع من الدراسات ، الذي يحتاج قبل كل شيء إلى التوفر والتجرد والمعونة المالية من الدولة أو الهيئات العلمية .

وثانيا : معرفة آراء القدماء وأحكامهم على تلك « الكشيات » التي سنحصل عليها بعد تحليل المادة ، وعلى ما بمجراها من أساليب التعبير . وهذا أمرٌ في غاية الصعوبة ، وهو إلى الاستحالة أقرب ، لأنه ليس بأيدينا نبراس يكشف لنا عن آراء القدماء وأحكامهم ، اللهم إلا ننتفا ولمعاً ضئيلة . ولا يمكن إصدار الأحكام العامة من جهتنا في ضوء اللمع الضئيلة ، والنشف المبعثرة ، وعلى هذا فسيكون عمدتنا التخمين والحدس . ومهما صدقنا في ذلك ، فإننا لانهصل على نتائج وافية شافية .

وإذن فيلزمنا أن نمزج بين السبيلين ، الأولى والثانية ، وذلك بأن نجعل طلب الإيجاز المحض ، والإعراض عن الزوائد ، نُصَّب أعيننا ، وفي نفس الوقت نحاول معرفة بعض وجوه الزينة اللفظية ، التي مافتئت تروق الأدباء ، وذلك باستقراءها من المختارات الجياد ، المجمع على تقديمها وتفضيلها . هذا ولا بد قبل الاستقراء من الإلمام ببعض المبادئ الجمالية العامة ، التي تسيطر على فكرة التزيين والتحسين في عقول البشر .